

المنجم الذي لا ينضب من يجمع التراث الفني الفلسطيني ومن يجدده؟

بيروت / ياسر علي

«التغريبة الفلسطينية» أو «ليالي الصالحية» كل هذا التراث؟؟ «ليالي الجليل»، «بحر غزة»، «أهل البلد»، «موسم فلسطين»، «جبل النار»، «حواري القدس»، إلخ.. كلها أسماء تصلح لسلسلة فلسطيني (فلاحي أو مدني)، لتوثيق هذا التراث الضخم من الأغاني، التي كما ذكرنا لم نسمع حتى الآن أكثر من ٣٠٪ من أغاني أعراس هذا التراث، وتركوا مراحل عديدة وتوقفوا عند أغاني الزفة فقط، مع أن بقية الأغاني تفوق أو توازي في قيمتها الفنية أغاني الزفة، ومنها أغاني ليلة الحنة وخروج العروس من بيت أهلها (آلاف من نظم المهابة «أويها» سجلها التراث عن وداعها لأمها واستقبال أهل العريس لها)، قدوم الجاهة، الطليبة والموافقة، الحمام والبرزة والصمدة، المرور على بيوت أهل البلد (كان المغني في البلد يسمى صاحب كل بيت تمر من أمامه الزفة)، ويقابل ذلك عند العريس حلاقته وحمامه ولباسه، وبعد ذلك كله، تأتي أغاني الزفة التي انتشل منها المنشدون أغانيهم الحديثة.

وليست الأعراس هي التراث، فهناك أغاني المواسم (الضاححة، والزرع، والقطاف، والحصاد، والدرس على البيدر، وعصر الزيتون..)، وأغاني الصيد (براً وبحراً)، وأغاني الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية، وأغاني الحج ورمضان، وما يلحق أغاني العرس، مثل الولادة والظهور وهدية الأطفال..

نماذج من أغاني الأعراس

أكثر من التزم بالأغنية التراثية بشكلها القديم، هم فرقة الاعتصام، خاصة في أغنياتهم «قولوا لأمه تفرح وتتهنى..»، أما غير ذلك من الأناشيد، فمعظمه تم تغيير وتحوير كلماته. ومن هنا جاءت دعوتنا إلى العمل على توثيق هذه الكلمات والعادات كما كانت، ومن ثم الاستفادة منها بالشكل الذي يريده المنشدون.

ونجد عالم أغاني العرس الكثير من الأغاني التي ما زالت يتيمة لم ينشدها أحد من الفنانين، ولا حتى تحويراً، ومثال ذلك:

تعيش في مجتمع ما زال يمارس هذه العادات على أرضه في المناطق المحتلة عام ١٩٤٨. ولم يقتصر الأمر على هاتين الضفتين إذ لم يخل شريط فني في السنوات العشر الماضية من وصلة شعبية، حيث اعتمده كل الفرق تقريباً.

وقد استفاد الإسلاميون من هذا التراث، لكنهم - بصراحة - لم يفيدوه، ولم يُحسنوا استغلاله، ولم يكونوا الوسيلة الدقيقة والموضوعية لنقله إلى الأجيال التالية.. لم يبق أحد منهم يحمل هم هذا الموضوع، بات معظمهم يدخر أغنية من التراث لألبوم قادم، بعد أن يقوم شاعر بتغيير كلماتها، ويعيد موزع توزيع إيقاعاتها بما يتناسب مع الشروط الفنية والشرعية. ولم نجد حتى الآن من الفرق الإسلامية من يأتي بعازف شبابية وطبل تادية وصلة العرس الفلسطيني بتفاصيله.

نركز على «العرس الفلسطيني» لأنه أكثر المناسبات استخداماً للأغاني، وأكثر مواطن التراث التي استغلها الفرق الإسلامية، ورغم ذلك لم تستغل أكثر من ٣٠٪ من مخزونها، بل أكثر من ذلك، فإنهم يستغلون أغاني العرس أو الغزل الفلسطيني في أغنيات جهادية، وهذا جميل، إلا أنه لا يخدم كما يجب فكرة توثيق التراث..

المنجم

في التراث الفلسطيني منجم ضخم وعميق عمق التاريخ من الأغاني واللوحات الفولكلورية، لم نقم حتى الآن باستخراج كنوزه ودرره.. ولم تستخدم غالبية هذه الأغاني، رغم أن بعضها استخدم في غير موضعها، مثلاً لا حصراً، أغنية «يا رويدتنا يا قدس.. يا رويدتنا يا هي» وأغنية «دبل عيونو ومد أيدو يحنونو» للمشهد محمد حنون، وهي في الحقيقة أغنيات تغنى للعرس في ليلة الحنة..

وما رأيت احترافاً مثل احتراف خليل عابد ومريم العموري في العرف من منجم التراث، وقد بات لدينا الكثير من الأغاني المسجلة والمتفرقة في مناسبات غير العرس.

لنتخيل! أي إطار يستطيع أن يوثق بحرفية

في جلسة طويلة مع مخرج فلسطيني تناولت عدداً من المواضيع الفلسطينية الفنية، تطرقنا إلى توثيق التراث، فقال: إن مما يحلم به هو توثيق حديث للعرس الفلسطيني القديم بكل مراحل وأغانيه، وهذا ما لم يفعله أحد من قبل، حتى «التغريبة الفلسطينية»، تناولت كل شيء إلا التراث الفني، حيث تناولت مواسم القطاف والحصاد، دون ما يرافقها من أغانٍ، والعرس دون تفاصيله الفنية، وهكذا..

إذا درسنا الفكرة بواقعية وجدية، نستطيع أن نصنع مسلسل فلسطينياً يتناول هذه التفاصيل، دون حبكة درامية متشعبة.. أي بقصة بسيطة نصنع مسلسلاً لا يعتمد على القصة بقدر ما يعتمد على الصورة.. وهذا ليس عجباً أو شاذاً، وقد اعتمدهت الدراما السورية في ثلاثة مسلسلات مشهورة، غير ذات تعقيد في القصة، بل تعتمد على البساطة والطيبة والتعاون بين الناس، وهي مسلسلات «أيام شامية» و«ليالي الصالحية» و«باب الحارة». حيث مرت هذه المسلسلات (التي تشبه بعضها) على التركيبة الهرمية للحارة الشامية، والعادات والتقاليد كلها تقريباً، وأنواع الأطعمة الشعبية وحفلات العرس والتعازي والأعياد وصلاة المسجد.

صحيح أن بعض النقاد انتقد بساطتها، لكن هذا النقد ينتفي في الحالة الفلسطينية، التي تحتاج إلى توثيق تراثها مخافة الضياع، والتي يُعتبر تراثها أحد أهم الأعمدة الثقافية والسياسية في صراعها مع العدو الصهيوني. وبذلك يصبح المنتقد هناك «رسالة» هنا: أي في الحالة الفلسطينية..

هناك أشرطة كاسيت مسموعة ربما توثق كل أغاني العرس الفلسطيني، لكن ليس هناك أشرطة مرئية لذلك (تشمل العادات والحركات والتجسيد). وهذا ما يسعى إليه المخرج المذكور آنفاً.

الأناشيد الإسلامية

أكثر من اشتهر من فرق الفن الإسلامي، باهتمامه بالتراث هم فرقة الروابي، التي كرست الدبكة في حفلاتها والزفة في أعراسها، وفرقة الاعتصام، التي